مراد عنادي *

ومضات من فكر ورؤى الطالقاني

(الصفحات ١٠٥- ١٣٤)

ملخّص

يتلخّص منهج الطالقاني في نشاطه الإسلامي بالعودة إلى القرآن الكريم، وتفنيد فكرة التضاد بين العلم والدين، ورفض التفكيك بين الدين والسياسة، ونبذ الجمود والنزعة الجزمية، ومحاربة الاستعمار، ومكافحة الاستغلال، ومقارعة الاستبداد، ومقارعة الصهيونية، ووحدة المسلمين، و إقامة حكومة إسلامية، ووحدة الحوزة والجامعة، بالإضافة إلى تأسيس نظام الشورى.

إنه شخصية شاملة ومعقدة استقطبت مختلف الأطياف والألوان الفكرية، ولم يكن مع ذلك من أهل التساهل والتسامح. نضجه السياسي ونفسه الملهمة من الأنس بالقرآن الكريم جعلا ديدنه فتح باب الحوار برؤية منفتحة وواعية.

توطئة

يعد آية الله الطالقاني من الشخصيات الإيرانية الشاملة والمتعددة في أبعادها...

في شهر إسفند (آخر شهور السنة الإيرانية) من عام ١٢٨٩ للهجرة الشمسية (آذار عام ١٩١٠م)على أرجح الأقوال، رأى السيد الطالقاني النور في قرية "كليرد طالقان" لعائلة عرفت بطلب العلوم الدينية. وقد ترك الماضي العريق للعائلة في

* - أستاذ جامعة وخبير في الشؤون السياسية.

مقارعة الاستبداد بصماته على السيد الطالقاني حتى أن سجّله سطر أكثرمن نصف قرن من مقارعة ومحاربة الاستبداد والاستعمار. لكن الفترة ما بين شهر أيلول من عام ١٩٤١ وحتى انتصارالثورة الإسلامية، وكذلك خلال الفترة القصيرة التي عاشها بعد انتصارالثورة الإسلامية، أي حتى الأول من شهرأيلول عام ١٩٧٩، تميزت بدورمحوري ومؤثرلهذه الشخصية المجاهدة. فهذا الدورالمؤثر لم يقتصر على بُعد الجهاد ومقارعة الاستبداد و إنما ترك بصماته الواضحة حتى على البعد الديني من خلال عرض نظريات بشأن الحكومة الإسلامية والتعامل مع المجاميع السياسية المختلفة، بحيث أن مجلس خبراء الدستورأخذ بجملة من رؤاه وأفكاره واعتمدها كأصول ومواد ثابتة في الدستور. في هذه السطور يجري السعي إلى إلقاء نظرة عابرة على أفكارورؤى هذا المجاهد ذي النزعة التغييرية الذي لم يعرف الكلل.

إستراتيجية الجذب

إن تصفح أوراق السجل الجهادي للطالقاني منذ شبابه حينما واكب والده في طريق الجهاد ضد استبداد رضا خان وحتى مرحلة محمد رضا بهلوي التي امتدت ٣٧ عامًا وكذلك من شباط ١٩٧٩ وحتى أيلول من نفس السنة، يكشف عن أصل ثابت وهوأن «استراتيجيته تتمثل في جذب أكبرعدد ممكن بهدف تحقيق الحد الأقصى من القدرة على مقارعة الاستبداد البهلوي». هذا إلى جانب أنه «واصل التعامل بعقلانية والتعايش بمرونة مع كافة الأفراد مهما كانت ميولهم السياسية والدينية ورغم كل المخاطر. اعتمد مبدأ الحوارمعهم وجلس معهم للتباحث وتبادل الآراء ولبّى دعواتهم. وكان يقول لكل من يعترض عليه من أصدقائه بالقول «ينبغي لنا أن نجذب هؤلاء»[1]. لقد مثل دوره الفاعل في تشكيل «مؤسسة الإسلام» والكتابة في إصداراتها أي «مجلة التلميذ»، والنشاط في

الاتحاد الإسلامي للطلبة الجامعيين، والمشاركة الفاعلة في اتحاد المسلمين الذي أسسه الحاج سراج أنصاري بعد أيلول ١٩٤١ وكتابة المقالات في أسبوعية «مرآة الإسلام»، والمحاضرات المنتظمة في تفسيرالقرآن الكريم في مسجد «منشور السلطان» الكائن بالقرب من منطقة باغشاه في طهران (معسكرالحرحاليًا)، و إلقاء محاضرة في تفسيرالقرآن الكريم في أكاديمية التعاليم الدينية، والمشاركة في الإذاعة وطرح مشروع الحوارالإذاعي تحت عنوان حقيقة التربية، والتربية من وجهة نظرالقرآن الكريم، لا تمثل في الواقع سوى جزء من النشاطات الواسعة والشاملة للسيد الطالقاني الرامية إلى بلوغ الحد الأقصى من سعة مقارعة الاستبداد، والتي اتخذت طابعًا أوسع وأشمل مع مرورالزمن ومع نضوجه السياسي.

لآية الله الطالقاني سمات تميزه عن أكثرمعاصريه في بعدين.. فعلى صعيد تحليل أبعاد هذه الشخصية «هناك بعدان ملحوظان وجديران بالاهتمام؛ الأول هو أنه من طلائع النهضة الإصلاحية الدينية والانفتاح الديني، والثاني هوأنه من الموطئين للثورة الإسلامية في إيران»[٢]. إن السيد الطالقاني الذي تأثربأفكارورؤى آية الله النائيني وأبي الحسن الخرقاني وكذلك آية الله كمرئي يعد من طلائع المجددين الدينيين حيث قام وبهدف لفت انتباه المجتمع للتعاليم الدينية والإسلامية الأصيلة بخطوات يعد بعضها تكميلًا لما استنه علماء سبقوه من أمثال الشيخ النائيني، فيما بعضها الآخريعود إلى الأفكارالراقية لنفس السيد الطالقاني الذي أسس لها وبادر إلى اعتمادها بنفسه. وفي عملية رصد بسيطة يمكن تحديد المواضيع التالية في قائمة خطوات وأهداف السيد الطالقاني:.

العودة إلى القرآن الكريم، تفنيد فكرة التضاد بين العلم والدين، رفض التفكيك بين الدين والسياسة، نبذ الجمود والنزعة الجزمية، محاربة الاستعمار، مكافحة الاستغلال، مقارعة الاستبداد، مقارعة الصهيونية، وحدة المسلمين، إقامة حكومة إسلامية، وحدة الحوزة والجامعة بالإضافة إلى تأسيس نظام الشورى.

إن تجمع مثل هذه الآراء والأهداف قلما نجده في شخصية واحدة، ولعل هذه الخصيصة وكذلك نمط تعامل السيد الطالقاني مع فرق وشخصيات حمل بعضها أفكارًا مناقضة للآخر، هما اللذان صنعا منه شخصية فريدة من نوعها في تاريخ التحولات السياسية والاجتماعية على مدى القرن الأخيرمن تاريخ إيران. في السنوات التي أعقبت زوال حكم رضا شاه في أيلول من عام ١٩٤١ وتحول إيران على مدى عقد من الزمن إلى ساحة لتناحرمحتدم للتيارات الشيوعية اليسارية والأصولية الدينية والشوفينية الإيرانية على يد أشخاص مثل كسروي «أولى الطالقاني و إلى جانب تحديد نقاط الضعف في خطوات الحوزة على الصعيدين التبليغي والديني، اهتمامه بالفقه وتقييم التيارات المخالفة والرافضة للدين وركز على الدفاع عن الموروث الديني والثقافي الإسلامي داعمًا إياه بالبراهين المنطقية والاستدلالات العقلانية. وأقبل على الشريحة الشابة وسجل حضورًا أكثرفاعلية في الاجتماعات والمراكزالدينية فالتف حوله الكثيروتحول بمرورالزمن إلى شخصية بارزة»[٣].

ومن جهة أخرى، وفي ظل تحليله للتيارات اليسارية ومعايشته لزوال سيطرة الديمقراطيين (الشيوعيين) في زنجان وآذربيجان، قام إلى جانب تأثره بأفكارهم حول المطالبة بالعدالة، بالكشف عن الثغرات في نظرياتهم وأدائهم وتكثيف التأكيد على قدرة الدين في حل المشاكل الاجتماعية والثقافية. بالإضافة إلى ذلك بادرالطالقاني الذي يعد من أوائل المهتمين بدورالإعلام ومكانته إلى عرض نظرياته الدينية الحديثة فيما يتعلق بالمطبوعات والإذاعة. لم تنحصرسيرة الطالقاني وسلوكه السياسي ببرهة زمنية معينة و إنما امتد طوال سنوات نشاطه السياسي والديني قبل انتصارالثورة الإسلامية بالرغم من كل الاعتقالات وأحكام النفي وحالات المد والجزرالتي رافقت مسيرة التحولات السياسية والاجتماعية في إيران، ودون أن يشهد هذا الجهاد المستميت المتطلع لتحقيق أهدافه

أي توقف ولا حتى للحظة واحدة. وبغية توخي الدقة في تقييم دورومكانة السيد الطالقاني في التحولات السياسية والاجتماعية في إيران وكذلك غورأسبار رؤاه فإننا سنعرض لبعض من المفاصل الرئيسة في أبعاد هذه الشخصية المجاهدة.

النزعة القرآنية

يعتبراهتمام الطالقاني بالقرآن الكريم بصفته نبراسًا للمسلمين من النقاط البارزة في أفكاره ورؤاه. إن سعي الطالقاني للفت أنظارالشباب وسائرأفراد المجتمع للتعاليم القرآنية واهتمامه بتغلغل هذه التعاليم في التطبيقات العملية على صعيد الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية للمجتمع أدى إلى تصنيفه ضمن المفكرين والمجاهدين من ذوي النزعة القرآنية.

كان الطالقاني يرى أن الإنسان في هذا العصرأعجزمن أن يختط لنفسه مسيرالحياة ويشق طريقًا للخروج من المأزق الذي جعل الحياة المعنوية والأخلاقية لأهل الأرض في مهب ريح لا تبقي ولا تذر. وذهب إلى أنه لابد من نورأهدى وأسمى يطال الجميع، فتسترشد به الشعوب ويكون خاليًا من العصبية الجغرافية والتاريخية والعرقية كي يذعن له الجميع. «وهل هناك غيرالقرآن الكريم، كتاب للهداية يحمل مثل هذه المواصفات ويحظى بقبول كل عقل حر»[٤]. بهذه النظرة للكتاب العزيز والآيات الشريفة، عمد الطالقاني إلى عقد جلسات لتفسير القرآن الكريم صدرت إلى الناس في قالب كتب «إشعاع من القرآن الكريم» ساعيًا إلى التأسيس لفكرة التعايش مع القرآن على صعيد العائلة والمجتمع والسجن والجهاد كي يحصن المجتمع بهذا الشكل من الأخطارالمحتملة.

يقول الطالقاني بهذا الشأن: «لمّا أحسست بأن شبابنا يواجهون خطرًا من الناحيتين العقائدية والإيمانية، أقدمت وبالرجوع لنفس أسلوب والدي المرحوم على تشكيل جلسات لعدد من الشباب والجامعيين في مجال الأصول والعقائد وتفسير

القرآن الكريم، وعلى أثرتلك الجلسات تم بعد أيلول عام ١٩٤١ تشكيل الاتحادات والمراكزالإسلامية، ومن بينها المركزالإسلامي واتحاد التبليغ الإسلامي واتحاد المسلمين، وكلها كان لها إصدارات منتظمة وتتناسب مع أفكار وأوضاع ذلك الوقت. لقد تعاونت معها كلها بهدف تطويرالتعاليم والمبادئ الإسلامية»[٥].

في الحقيقة أن النزعة القرآنية للسيد الطالقاني لم تكن الميزة الوحيدة لجلساته في تفسيرالقرآن الكريم و إنما كانت تتميزأيضًا بعرض تفسيرحديث ومتفتح للآيات الشريفة ما جعل أشخاصًا من شتى شرائح المجتمع يقبلون على الحضورفي جلساته ليعكس بذلك مرة أخرى سمة استقطاب الحد الأقصى في شخصية الطالقاني. حتى أن زميله في الكفاح المهندس بازركان قال «كان الطالقاني يفسرالقرآن الكريم ببيان سلس ومتين ومؤثر، ولطالما استفدت أنا شخصيًا وكذلك عدد من الجامعيين والشباب من كلامه. ومن هؤلاء رواد المركز الإسلامي الذي كان محلًا لتعاطي الأفكاروتعارف الأشخاص، من العميد في الجيش وصاحب المنصب العالي في وزارة البريد والهاتف والأستاذ المساعد إلى المعلم والجامعي والكاسب»[٦]. مما لاشك فيه أن السيد الطالقاني واجه مشاكل ومصاعب كثيرة في طريقه لجعل القرآن الكريم جزءًا من حياة الناس. فهو يصف أيام البدء بجلسات تفسيرالكتاب العزيزفيقول: «ما بين عامي ١٩٣٩ و١٩٤١ تقريبًا، أقفلت راجعًا من قم إلى طهران، وشرعت بتفسيرالقرآن الكريم في منطقة (قنات آباد) جنوب طهران. وهناك واجهت الضغط من فريقين؛ أحدهما من قبل الأوساط الدينية التي كانت تقول: بأي حق يقوم شخص بتفسيرالقرآن الكريم، فهذا القرآن يجب أن يقرأ فحسب وينشغل الناس بقراءته. أما الثاني فيتمثل بعناصر رضا شاه»[٧]. ويضيف السيد الطالقاني: «ما أكثرالضغط الذي تحملته كي أمهد للمفهوم القائل بأن القرآن الكريم هو للبحث والتحقيق، للتفكروالتدبر وليس لمجرد القراءة والتبرك»[٨].

وعلى نحو العموم، كان الطالقاني بسيرته القرآنية يعتقد بأن كتاب الهداية الذي كان يجب أن يسود الأبعاد الروحية والأخلاقية والقضاء والحكومة كما هو الحال في نصف القرن الأول من حياة الإسلام، قد حذف دفعة واحدة من الحياة وبات مبعدًا عن كل شؤون الحياة. الكتاب الذي كان ميثاق الدين والحاكم في كافة المجالات، قد أزيح عن الحياة العامة وبات كالأشياء الأثرية وصار كتاب أوراد يحظى فقط بالتقديس والتبرك»[٩].

في خضم حالة من الشعور بالقلق وبهدف إحياء دور الآيات القرآنية، عقد الطالقاني عزمه على إدخال القرآن الكريم الحياة السياسية والاجتماعية للناس، متحديًا كل الصعاب. مثل هذا الماضي الزاخر هو الذي دفع بالأستاذ مطهري ليقول عن الطالقاني: «لست أنا ولا شريعتي مَن أسّس لإقبال وتعرف جيل الشباب على الإسلام، وإنما طالقاني وبازركان هما اللذان شقا الطريق، ثم التحقنا بهم بعد ذلك»[١٠].

فك شفرة شخصية الطالقاني الشاملة على صعيد الكفاح السياسي

تميز السيد الطالقاني بأسلوب فريد من نوعه على صعيد الكفاح السياسي. فهو لم يكافح ويقارع الاستبداد والاستغلال والاستعمار فقط، وإنما مد خلال مسيرة الكفاح جسور التعامل والارتباط مع أشخاص ومجموعات حمل بعضها أفكارًا تقف على طرفي نقيض من أفكار بعضها الآخر، مما ولّد الغموض وأثار علامات استفهام حول شخصية الطالقاني. ففريق منهم راح يتساءل كيف يمكن للطالقاني أن يكون له اتصال من جهة مع «فدائيي الإسلام» ويحتضنهم ومن جهة أخرى يشاطر مصدق المسير؟ وعلى صعيد الانتخاب، كيف يمكن للطالقاني أن يقع اختياره على مصدق؟ إن الطالقاني لم يكن مجرد عضو الجبهة الوطنية ومن مؤسسي «نهضة الحرية». بل قام في إطار استراتيجيته باستقطاب

الحد الأقصى وبلوغ أعلى درجات القدرة على مقارعة الاستبداد، بمد يد العون للمجموعات الشبابية المجاهدة والمؤيدة للكفاح المسلح، وأظلّها بدعمه. مثلما حصل في حادث اختطاف الطائرة من دبي إلى العراق حيث تم على أثره اعتقال عدد من أعضاء منظمة ما يسمى (مجاهدي خلق) وسجنهم في العراق. حينها و إثرطلب من بعض الشخصيات السياسية والدينية المعروفة بعث الطالقاني إلى الإمام الخميني "قدس سره" برسالة طلب منه فيها بذل مساعيه من أجل أن تطلق بغداد سراحهم. واستند في جانب من الرسالة بالآية الشريفة ﴿إنهُم فِتيةٌ آمَنوا بربّهِم فزِدناهُم هدًى﴾[11]. علمًا أن الإمام الخميني "قدس سره" قال بعد قراءته للرسالة «أبلغوا الطالقاني عني السلام وقولوا له أن الأمرسيزداد سوءًا فيما لو توسطت لهم عند العراقيين». كما قيل أن السيد محمود دعائي، وهو من المقربين من الإمام، حضرفي اليوم التالي عند الإمام "قدس سره" وتوسل إليه باكيًا لمساعدة المجاهدين لكن جوابه كان الرفض الذي أثارتعجب عدد من أنصاره في الداخل»[12].

ما تجدرالإشارة إليه هنا هوأن الطالقاني انتقد المنظمة بعد أن انحرفت فكريًا. ورغم أن بعض أعضاء قيادة منظمة (مجاهدي خلق) حاول استغلال مكانته وشخصيته لمصالحهم الخاصة عبرترديد عبارة «الأب طالقاني»، إلاأن الأخير المعروف برأيه المستقل شكك في آرائهم وخطواتهم. على العموم، وكما هو بائن فإن السيد الطالقاني شخصية شاملة ومعقدة استقطبت مختلف الأطياف والألوان الفكرية. من هنا؛ هل كان الطالقاني يحاول على الصعيد السياسي جمع الأعوان والأنصارمهما كان الثمن؟ هل اختارالطالقاني هذا الأسلوب على أساس التساهل والتسامح؟ أم ينبغي لنا البحث عن معاييرومؤشرات أخرى في إطارتحليل استراتيجيته في مجال الكفاح السياسي؟

يبدو من خلال إلقاء نظرة على سلوك وعمل السيد الطالقاني على الصعيد

السياسي أنه لم يتحرك أبدًا من المنطلق الميكافيلي المتمثل في أن «الغاية تبرر الوسيلة». وبتعبيرآخر، لم يكن يسعى لمجرد استقطاب الأعوان السياسيين لمقارعة الشاه ومهما كلف الثمن. ومن زاوية أخرى، ونظرًا للمواقف الحازمة للسيد الطالقاني إزاء بِدَع كسروي أو منظمة (مجاهدي خلق) بل وحتى انتخاب مصدق ولو بثمن إغضاب آية الله كاشاني، فإن طالقاني لا يبدو وكأنه من أهل التساهل والتسامح. من هذا المنطلق فإن العامل الرئيس لتعاطي الطالقاني مع أطياف فكرية مختلفة يقف بعضها على طرفي نقيض من الآخر، وسعيه لاحتوائهم ودعمهم نابع من تأسيه بأسلوب وسيرة الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم). فقد سعى عبرمحورية القرآن الكريم وتفسيره ولفت انتباه الناس للتعاليم القرآنية وسيرة الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى جذب شريحة عريضة من الشباب. فإن لاحظ انحرافًا في أفكارهم عمد عبرالحواروالتفاهم إلى إقناعهم و إعادتهم إلى جادة الجهاد الصحيحة.

«إن أهم عامل منح الرفعة والمكانة المرموقة للخط الفكري والعملي للسيد الطالقاني وجعل هذا الخط العقائدي خاصًا به، هو تمسكه بالقرآن الكريم في مختلف الأبعاد العلمية والاجتماعية والاقتصادية واهتمامه بعامة الناس لاسيما الطبقات الفقيرة التي شكلت غالبية المجتمع»[١٣].

لم يعرف منهج الطالقاني شيئًا اسمه الإسراع في تكفيرالطرف المخالف والتعامل بنزعة التزمت بالرأي وذلك بفضل نضوجه السياسي ونفسه الملهَمة من الأنس بالقرآن الكريم. بل كان ديدنه فتح باب الحواربرؤية منفتحة وواعية. وهذا في الواقع هو سرنجاح الطالقاني في التواصل مع كثيرمن المجموعات السياسية، مجموعات لم يكن لأحد في الحالة العادية أن يتصوروجود حلقة وصل بينها تسمى بالطالقاني وذلك للهوة التي تفصلها عن بعضها على الصعيد الفكري وأسلوب الكفاح.

على صعيد الكفاح السياسي، وحينما بدأت الحركتان الماديتان؛ بقايا مجموعة الثلاثة والخمسين شخصًا برئاسة الدكتورآراني وحركة التزمت بقيادة خسروي، في سنوات ما بعد أيلول ١٩٤١، بتفتيت المجموعات الدينية، كرّس السيد الطالقاني اهتمامه للحركات الإسلامية الجامعية. وبغية كسرحاجزصمت الحوزة وموقفها المحايد الذي استمرلسنوات، وابتعاد علماء الدين عن الساحة السياسية والصراعات الاجتماعية، عمل على شرح و إشاعة الأسس والعقائد الدينية بين شباب الاتحادات الإسلامية والمراكزالدينية (المركزالإسلامي، اتحاد المسلمين، اتحاد التبليغ الإسلامي، الاتحاد الإسلامي للأطباء، الاتحاد الإسلامي للطلبة الجامعيين، الاتحاد الإسلامي للمهندسين، الاتحاد الإسلامي للمعلمين)"[١٤]. ومن أجل تعبئة الكوادرالطلابية في الجامعات، أقدم الطالقاني على اتخاذ خطوات نوعية كلفته الكثير وواجه على أثرها معارضة حتى بعض علماء الدين. إن الطالقاني الذي شعربالحاجة لوقوع ثورة دينيية وبضرورة استثمار كافة الطاقات المتاحة لتحقق هذا الأمر، مزج الكفاح الوطني بالكفاح الديني وأسس اتحادات إسلامية غيرتابعة وبدأ وعلى نطاق واسع بإشاعة الفكرالديني والثقافة الإسلامية ومفهوم مقارعة القوى الاستبدادية والاستعمارية والإلحادية في داخل وخارج البلد»[١٥].

أولى تلك الخطوات النوعية التي اتخذها السيد الطالقاني على صعيد الكفاح السياسي، تمثلت في سعيه للتوحيد بين الحوزة والجامعة. «فلقد اتخذ الطالقاني وبهدف التقريب بين الحوزويين والجامعيين عددًا من الخطوات وصفت في حينها بأنها خطوات رائدة . من بين تلك الخطوات توفير أجواء أتاحت للجامعيين فرصة تفسيرالقرآن الكريم في المساجد. وانطلاقًا من رفض الطالقاني لمبدأ الأصالة لعلماء الدين ومفهوم اقتصارتفسيرالإسلام على طلبة الحوزات العلمية، واعترافه إلى جانب ذلك بغيرالمعممين ممن يفسرالإسلام، فإنه سمح للمثقفين المتدينين

بإلقاء محاضرات في مسجد «هدايت» يحضرها بنفسه ليستمع للمتحدث دون أن يحسب ذلك عيبًا، كما كان شائعًا حينها»[١٦]. وحسب تعبيرآية الله مهدوي كني فإن «الطالقاني فتح أبواب المساجد أمام الشباب المثقفين والجامعيين، كما فتح أبواب الجامعات أمام المسلمين وطلبة العلوم الدينية»[١٧].

وانطلاقًا من تفاؤل آية الله الطالقاني بآفاق هذا النهج فقد واصل مسيرته رغم كل سهام النقد الموجهة إليه، إذ أن أسلوبه لم يستسيغه جملة من طلبة العلوم الدينية والعلماء في ذلك الوقت. "كان هناك من يعتبر كافة طلبة الجامعات والكادرالجامعي كفارًا وملحدين ولا دين لهم، ولم تكن هذه المجموعة لتقتنع أن بإمكان هؤلاء أن يكونوا على مستوى جيد من التدين. لذا بذل الطالقاني بأسلوبه الثوري في نشرالافكارالإسلامية، في الكفاح السياسي، في الحوزة، في الجامعة، في قم، في طهران، في السجن وفي كل مكان.. بذل كل ما في وسعه بغية إزالة سوء التفاهم الحاصل بسبب مواقف بعض طلبة العلوم الدينية الرجعيين أو شريحة مخالفة من الجامعيين، فآتت جهوده أكُلها ولاحت في الأفق علائم النجاح خلال سنوات عقد الستينيات»[١٨]. هذا النمط من الجهاد وتحدي الصعاب دفع الكثير إلى اعتبارالطالقاني المؤسس لوحدة الحوزة والجامعة وأنه سعى أكثرمن غيره في توحيد الصف بين العلماء والجامعيين، وقد حقق مراده»[١٩].

على أن الطالقاني المتسم بمنطقه الرصين والجذاب لم يترك كلمات النقد الموجهة إليه دون رد، بل عمد في بعض الأوقات وبمبدأ «التلميح خيرمن التصريح» إلى الرد على مصاديق التحجرالفكري، وهو ما نشاهده على سبيل المثال في كتاب «بريد الشمس».

إن النقد الذي كانوا يوجهونه إلى الطالقاني هو أن مسجده يأوي ذوي الشعر الطويل ومرتدي ربطة العنق. كانوا يقولون له «رغم أن كافة المصلين في

مسجدك من المتدينين لكنهم مع الأسف يحلقون أذقانهم. عليك أن تذكّرهم بحرمة حلق اللحية. وكان الطالقاني يجيب: عليّ بمتبنياتهم، وعليكم بأذقانهم. أنا أقوم بجذب الشباب إلى المسجد وأعلمهم تعاليم الإسلام والقرآن الكريم، أما مسألة اللحى فعليكم أنتم»[٢٠].

وفي واقع الأمرأن تحلّي الطالقاني بمثل هذه النفسية والنظرة جعله نقطة التقاء كافة الأطراف وحوّله إلى شخصية تستوعب المحيطين به. وهذا النهج كان واحدًا من العوامل الممهدة لوحدة صف الجماعات على اختلاف مشاربهم في مسيرة انتصارالثورة الإسلامية لاسيما في ظل الرؤية الواسعة للطالقاني، إذ اصطفت نخب الحوزة والجامعة، بل وحتى كافة كوادرالحوزة والجامعة، بمرورالوقت جنبًا إلى جنب في مواجهة استبداد الشاه ومقارعة الاستعمار. "وفي الأساس أن الحصة الأوفرفي تحقق وحدة الحوزة والجامعة كان من نصيب «مسجد هدايت» ومن ثم «حسينية الإرشاد» و«مسجد قبا». لذا ليس جزافًا القول إن الطالقاني ومن بعده الأستاذ مطهري والشهيدان بهشتي ومفتح هم طلائع هذه الوحدة المباركة"[٢١].

طالقاني.. صاحب الريادة في توحيد علماء الدين والمثقفين

إن جهود السيد الطالقاني التي أثمرت عن تحقق الوحدة بين الحوزة والجامعة، كانت لها انعكاسات إيجابية أخرى تمثلت في وحدة علماء الدين والمثقفين. فبالرغم من حالة المد والجزرالتي شهدتها مسيرة اتحاد هاتين الشريحتين بدءًا من زمن ثورة الدستوروحتى مرحلة الطالقاني للتعايش السياسي.. إلا أن الطالقاني كان من المجاهدين الذين تمكنوا من قطع خطوات عريضة ومهمة على هذا الصعيد كتواجده بين أعضاء الجبهة الوطنية ونهضة الحرية. ويحاول شريعتي أن يجسد منزلة الطالقاني الرفيعة فيقول عنه:

«كلما جئت من مشهد إلى طهران، كان هذا الرجل المسن الملاذ الوحيد الذي

آوي إليه ومبعث الأمل فيّ. يجلس في ركن مسجد هدايت يقضي الليل بالأنين. كان هناك الطالقاني ومسجد هدايت، لا غير، كالنبراس في الفلاة، صرح شامخ للحرية وصرخة مدوية»[٢٢].

بيد أن نهج السيد الطالقاني الثوري لم يجمح به إلى تجاوزالحدود فيما يتعلق بوحدة علماء الدين وبين المفكرين، فمتى ما أحس بتخلل المسيرة ما يمكن أن يفضي إلى تجاهل مبادئ وأصول الإسلام ويشعربأن وصاياه و إرشاداته الرامية إلى الإصلاح والتحرك الصحيح لا تؤخذ على محمل الجد، بادرمع احترامه لمخالفيه إلى النأي بنفسه عنهم، وسعى إلى التأسيس للتحرك الصحيح.

بفضل هذه الروحية والنظرة الثاقبة التي تحلى بهما السيد الطالقاني الذي واكب طلائع حركة تأميم النفط في برهة زمنية، صارواحدًا من العناصرالرئيسة في بلورة حركة المقاومة الوطنية لاسيما بعد أن ضيّق انقلاب ١٩ آب (٢٨ مرداد) الخناق عليهم. فحركة المقاومة الوطنية لم يضع لبناتها الأولى رؤساء الأحزاب والشخصيات السياسية البارزة في مرحلة الحركة الوطنية بل غالبية المؤسسين كانت من الشخصيات الدينية المعروفة بميلها لمصدق.

«التأمت هذه الحركة على يد آية الله السيد رضا الزنجاني وأخيه آية الله السيد أبي الفضل الزنجاني، ومهدي بازركان، والسيد محمود الطالقاني، والدكتور يد الله سحابي، وعباس سميعي، ورحيم عطائي وعدد من الشبّان النشطين، الذين كانوا في الغالب يميلون إلى التيارالديني للجبهة الوطنية. فبعد أن اختلف آية الله الكاشاني مع مصدق، التف هؤلاء حول قادة دينيين من الدرجة الثانية ومؤيدي مصدق، وبعد أشهرمن الانقلاب بادروا إلى تشكيل حركة المقاومة الوطنية ولم شمل الأحزاب والتيارات وأنصارمصدق"[٢٣]. كانت هيئة طهران العلمية من اللبنات الأساسية والمؤثرة في حركة المقاومة الوطنية حيث قامت بإصدارمجلات مثل «نشرالعلم، العلم وثقافة الإسلام» ضمت مقالات لآية الله طالقاني الذي كان حينها من نشطاء الهيئة العلمية.

«وبهذا الشكل مثلت حركة المقاومة الوطنية بنهجها الفكري نقطة الانطلاق لمرحلة جديدة في الكفاح السياسي للشعب الإيراني. فهي على عكس حركة الجبهة الوطنية لم يطغ عليها الطابع الوطني البحت كما لم تكن دينية محضة كالحركات الجهادية التي قادها علماء بنزعة سياسية خلال العقود الماضية، وإنما كانت تركيبًا من منهجين؛ وطني وديني»[٢٤]. لاشك أن حركة المقاومة الوطنية بشكلها المعروف هي ثمرة جهود ورحابة صدروفكرحر لأشخاص كالطالقاني الذي تحول إلى شخصية بارزة على صعيد النشاط السياسي ومُجدّة في المزيد من توثيق الأواصربين علماء الدين والمثقفين، بل والرائد في هذا المجال. «إن الطالقاني وبالرغم من دفاعه المستميت عن مصدق خلال الفترة من ١٩٤٩ وحتى ١٩٥٣ لكنه لم يكن شخصية يشارلها بالبنان على الصعيد السياسي وذلك لسببين؛ الأول أنه كان حينها شابًا تقريبًا، والثاني أن آية الله الكاشاني كان له قصب السبق في هذا المضمار. لكنه وبعد أن عزف الكاشاني عن دعم مصدق، ذاع صيت الطالقاني كعالم دين معروف داعم للجبهة الوطنية، وإن كان على صعيد طهران وليس إيران كلها»[٢٥]. ورغم أن رأي آبراهاميان هذا يتسم بالعمق، إلا أن السيد الطالقاني بما كان يحمله من فكرمتجدد ونظرة شاملة، تمتع أيضًا خلال الفترة الزمنية المشارإليها من قبل آبراهاميان بمكانة رفيعة في دائرة التعايش السياسي في إيران. حتى أنه مارس دورالوسيط حينما كانت الخلافات بين الكاشاني ومصدق تبلغ ذروتها. علمًا أن كلام آبراهاميان قد أصاب كبد الحقيقة بشأن إذاعة صيت الطالقاني تعود إلى سنوات ما بعد انقلاب ١٩ آب. على كل حال ورغم ما ضمته حركة المقاومة الوطنية من شخصيات بارزة، إلاأنه وبعد جملة من التحولات الداخلية والدولية التي بدأت في النصف الثاني من عام ١٩٥٧ كالضربات التي وجهها نظام الإنقلاب إلى المعارضين لاسيما قادة الحركة والخلافات الداخلية التي تجسدت فيما بعد في تشكيل الجبهة الوطنية الثانية،

بدأت الخلافات تنخرفي جسد حركة المقاومة الوطنية وضرب إسفين الانشقاق بين العناصرالدينية والعناصرالوطنية وبدأ التشتت فيها رغم مساعي الطالقاني الرامية إلى توحيد صفهم.

«أما آخر إجراء رسمي للحركة فتمثل بإصدار كراس بأربع وعشرين صفحة بشأن النفط ومهاجمة العقد الموقع مع الشركة الإيطالية (آجيب) الذي افتضح أمره. وحينها أقدم النظام بعد تشخيصه لأعضاء الحركة بملاحقتهم و إنهاء نشاطها بعد اعتقاله لأعضائها المؤثرين في طهران وباقي المدن»[٢٦].

ومع أفول نشاط حركة المقاومة الوطنية التي اعتبرت تجسيدًا لجهود الطالقاني ومن يسيرعلى نهجه في مجال الوحدة بين علماء الدين والمثقفين، انبثقت الجبهة الوطنية الثانية فكان الطالقاني من العناصرالمؤثرة والبارزة في تأسيسها وتنظيمها منذ البداية. لكنه ونظرًا للنهج اللاديني للجبهة الوطنية، قام بعد فترة قصيرة وبمعية بعض رفاقه المناضلين المقربين بتأسيس جمعية حركة الحرية الإيرانية ذات التوجه الديني، وهذا النهج صارمدعاة لتمتين علاقته وأنصاره مع حركة علماء الدين بقيادة الإمام الخميني "قدس سره".

الطالقاني من حركة الحرية إلى النهضة الخمينية

انبثقت الجبهة الوطنية الثانية عام ١٩٦٠ في وقت طفحت فيه إلى السطح الخلافات في وجهات النظر بين مؤسسيها. الخلافات التي تسببت بعد فترة وجيزة في انبثاق حركة الحرية الإيرانية.

«في الحقيقة أن التيارالإسلامي أدرك أن أجواء الجبهة الوطنية ليست مناسبة وغيرمفيدة للقيام بنشاطات اجتماعية - سياسية على أسس إيديولوجية إسلامية. في المقابل فإن التيارات البعيدة عن التوجه الديني التي عارضت بشكل واضح إضفاء الطابع السياسي على الدين، اعتبرت ترسيخ الدين في النشاطات السياسية

الحزبية دليلًا على وهن وانحراف مسيرة الكفاح السياسي»[٢٧]. ثم تفاقمت حدة الخلافات بوجهات النظر إثر مجيء أميني إلى الحكم، فالتيار الأصولي الذي غلب عليه عادة النهج الديني السياسي وانبثق عن حركة المقاومة الوطنية وفيه شخصيات من قبيل الطالقاني وبازركان كان يذهب إلى ضرورة استغلال الخلافات بين الشاه وأميني والسعي إلى المزيد من إضعاف الشاه عبر تعزيز مكانة رئيس الوزراء. بينما التيار المعتدل الذي شاءت الأقدار أن يشكل الغالبية في المجلس الأعلى للجبهة الوطنية فقد عمل على محاربة أميني وتجنب مهاجمة الشاه. «على هذا الأساس وبعد تسعة أشهر من تشكيل الجبهة الوطنية الثانية، تسببت النزعة الإسلامية في السياسة وتباين وجهات النظر في منهجية الكفاح وآلية مواجهة الشاه أو رئيس الوزراء والاختلافات الفكرية والذوقية السابقة في أن يبادر بازركان والطالقاني وسحابي ومن يشاطرهم الفكر إلى تأسيس حركة الحرية الإيرانية في ربيع ١٩٦١»[٢٨].

وفي الواقع أن آية الله الطالقاني الذي انضم إلى حركة الحرية باقتراح من آية الله الزنجاني، مارس دورًا رياديًا في قيادة الحركة وتوسيع نطاق أنصارها. ورغم ذلك فإن السيد الطالقاني أبى تواضعًا في البداية أن يتم طرح اسمه كواحد من مؤسسي الحركة، غير أنه وبعد إلحاح أصدقائه وبعد إقامته لإحدى صلواته أعرب عن رضاه بالأمر. عندها يبعث السافاك له ببرقية مفادها بأنه ليس من شأنك الانضمام لحزب سياسي وأن شخصيتك أجل مقامًا من أن تنضوي تحت هذه التقسيمات. عليك أن تحافظ على منزلتك كعالم دين وتنسحب من الحركة. فيقوم آية الله الطالقاني برفض هذا الإقتراح، ويقول: «أنا عضو في الحركة ومصيري ومصير الحركة واحد»[٢٩]. استطاع الطالقاني بما اتسم به من مشاركة فاعلة ومواقف مؤثرة في أقرانه أن يحوّل حركة الحرية الإيرانية إلى واحدة من المراكز الرئيسة لمقارعة الشاه ويوسع آفاقه الفكرية في هذا الإطار لتتخطى

الحدود الوطنية ويرسخ مواقف الدعم للحركات الإسلامية في العالم الإسلامي. «إن هذه الحركة التي هي بمثابة جمعية إسلامية راقية تحمل أهدافًا وطنية ودينية سرعان ما استقطبت اهتمام شريحة الشباب المتدين والجامعي وباتت أسوة لكثير من المجموعات الدينية السياسية (المعتدلة والأصولية) داخل وخارج البلد»[٣٠].

«وفي ظل الأهداف المرسومة والمحددة وتأكيد مؤسسيها على أنها ليست مركزًا في مقابل الجبهة الوطنية الإيرانية، قامت حركة الحرية الإيرانية بتوسيع استقطاباتها من الشرائح المختلفة حتى تبوأت مكانة معتمَدة بين المؤسسات المناضلة من الطرف المقابل. لقد أسست الحركة فروعًا كثيرة لها في أنحاء إيران بل وحتى في الدول الأوروبية وراحت تمدّ جسورالتواصل مع الاتحادات الإسلامية»[٣١]. غيرأن الحديث عن حركة الحرية الإيرانية يجرنا إلى التطرق لنقطة هامة تتمثل بوجود تيارين فيها. «الأول هو التيارالمجرد من الميول الاشتراكية والمستند إلى مفاهيم الشريعة في عملية الصمود بوجه النظام. ورموزه مهدي بازركان وسحابي والطالقاني، وهؤلاء المؤسسون الأوائل له. فيما التيارالثاني الذي يخبو فيه بريق التدين فيؤكد على الميول الاشتراكية، ورموزه رحيم عطائي وعباس راد نيا وعباس سميعي. وهناك تيارثالث كان في طورالتشكيل امتزجت في خطه الميول الاشتراكية وأفكارالتيارالمتدين وله أنصار كثيرون بين الجامعيين المنتمين للحركة»[٣٢]. لكن هذا التقسيم لاسيما في ظل حساسية الجبهة الوطنية إزاء أفكارونهج التيارالثاني الذي لم تكن له أية مشاركة في الجبهة الوطنية وكان يعلن معارضته الصريحة لمواقف الجبهة وسياساتها، أدى إلى أن تضع الجبهة الوطنية حذف هذا التيارمن حركة الحرية كشرط مسبق لقبول الأخيرة ضمن الجبهة. «تسببت الخلافات مع الجبهة الوطنية في انعدام تمثيل حركة الحرية كمكوّن سياسي في الجبهة الوطنية الثانية، أما عضوية أفراد مثل بازركان وسحابي والطالقاني في الجبهة فإنما هو بصفتهم الشخصية لا بصفتهم ممثلين لحركة الحرية»[٣٣].

المراد من التعريج على هذه النقطة هو تثبيت أن تزايد حدة الخلافات من جهة ورفض سياسات الشاه عبرمسيرة ثورة الخامس من حزيران (١٥ خرداد) عام ١٩٦٣ بقيادة الإمام الخميني "قدس سره" من جهة أخرى دفعا بحركة الحرية إلى الدفاع عن مواقف علماء الدين والذود عن إنجازات ثورة الخامس من حزيران (١٥ خرداد) عام ١٩٦٣.

«والحقيقة أن رفض الإمام الخميني "قدس سره" للائحة اتحادات المقاطعات والولايات ومواقفه الحازمة ضد سياسات الشاه وبما تعدّ حضورًا جادًا لعلماء الدين في ساحة الجهاد ضد الاستبداد، شكلت حلقة اتصال وثيق بين حركة الحرية مع الحركة الإسلامية بقيادة الإمام الخميني (قدس سره)»[٣٤].

وعقب وقوع ثورة الخامس من حزيران، اتسم موقف الجبهة الوطنية إزاءها بالفتور، بينما أظهرت حركة الحرية بفضل تواجد الطالقاني فيها رد فعل قويًا ضد إجراءات الشاه الأمرالذي أثارحفيظة النظام ضدها. ولم يمنع نفي واحتجاز الطالقاني خلال هذه السنوات من مواصلة ارتباطه بالمسيرة الجهادية للإمام الخميني "قدس سره". ورغم أنه لم تتح له الفرصة للسفرشخصيًا إلى النجف الأشرف لكنه ظل يتواصل معه عبرالرسائل والبرقيات التي كان ينقلها المسافرون والمجاهدون. وهكذا ظل يتعاون مع الإمام حيث مهدا الطريق لمحاربة الشاه. لقد بلغ دورطالقاني في انتصارالثورة الإسلامية ومواكبته لمسيرة الإمام من الأهمية حتى أطلق عليه لقب الرجل الثاني للثورة.

طالقاني وفكرة الحكومة الدينية

إن مبادئ الطالقاني الاثنى عشرالتي تم التطرق إلى بعض منها حتى الآن، لا يمكن حصرها في هذا المقال لوسعتها وشموليتها. من بين تلك المبادئ؛ موضوع الجهاد على الصعيد الإقليمي وكذلك آفاقه الفكرية التي اهتمت بتقديم سبل

حل عالمية لإنقاذ البشرية من براثن الاستعماروالاستغلال والاستبداد. لقد قطع الطالقاني خطوات عريضة على طريق دعم ظلامة الشعب الفلسطيني، فيما وجهت إليه تهمة دعم الوهابية وأهل السنة من قبل بعض الجهلاء إثرعقده مأتمًا على روح الرئيس المصري جمال عبد الناصرفي مسجد هدايت. هذا في حين أن الطالقاني المتأثربأفكارورؤى أفراد مثل السيد جمال ومحمد عبدة، كان يتطلع مع مواصلته مقارعة الاستبداد البهلوي إلى محاربة الاستعمار، ويعتبردعم حقوق المسلمين في مختلف أنحاء العالم واجبًا على كل مسلم. لكنه وبغض النظرعما كان يحمله الطالقاني من خيوط فكرية، وهو موضوع يحتاج إلى دراسة مفصلة، فإن هاجسه الرئيس على الصعيد الوطني هو عرض آلية ناجعة لإدارة شؤون المجتمع على أساس التعاليم القرآنية وطريقة إدارة الدولة وفقًا لنهج نبي الإسلام (صلى الله عليه وآله وسلم) والإمام علي (عليه السلام). لقد عرض الطالقاني رؤيته بشأن الحكومة الإسلامية في كتابين مهمين سطّرهما عقب انقلاب ١٩ آب (٢٨ مرداد) و إثرممارسة الضغط عليه من قبل حكومة الانقلاب بهدف دفعه للإنسحاب من المشهد السياسي. يحاول طالقاني في البداية التوصل إلى طريقة تطبيق الحكومة الإسلامية ويذهب في مقدمته على كتاب *تنبيه الأمّة وتنزيه الملّة* لآية الله النائيني إلى تخطئة الحكومات الفردية والقوى الاستبدادية ويدعو شريحة علماء الدين للمشاركة في السياسة وفي مصيرالناس»[٣٥].

وفي ظل الأجواء السائدة على العلاقات الدولية ونماذج الحكومات الرأسمالية والاشتراكية الموجودة، تحدث الطالقاني في كتاب «الإسلام والمِلكية» على سبيل التفضيل عن كل من هذين المذهبين. فبعد شرحه لسمات كل منهما، قام بشرح مزايا المذهب الإسلامي خاصة في البعد الاقتصادي. بعبارة أخرى، تحدث الطالقاني عن مزايا الحكومة الإسلامية بعد أن ناقش الأبعاد المختلفة للحكومات الرأسمالية والشيوعية.

«بمقارنة مجموعة الأسس الاقتصادية للإسلام والأحكام الإسلامية مع باقي المذاهب الإقتصادية الحديثة يتضح بالقطع أن الاقتصاد الإسلامي لا يتطابق في أي من الجوانب مع المذاهب العلمية أو العملية، وله مزاياه الخاصة به»[٣٦]. يشير طالقاني في كتابه هذا إلى سمات الحكومة الإسلامية التي يتطلع إليها حيث يقول: «إن الحكومة الإسلامية بقيادة الإمام وولي وخليفة الله تعالى أو نائبه هي الأولى بالحكم و إقامة العدل على أساس المصلحة، فلها أن تقدم مصالح المجتمع على مصالح الفرد في حال حصول تعارض بين حقوق الفرد وبين حقوق المجتمع، ولها أن تحدّ من تصرف وملكية الأفراد بأكثرمما أجاز به القانون»[٣٧].

«غيرأن إثارة مواضيع كهذه تسببت في أن يتصورالبعض بأن الطالقاني يعتقد بوجود اتساق بين الدين والاشتراكية لاسيما وأن الله تعالى خلق العالم من أجل الإنسان ولا يرضى أبدًا بتصنيفه إلى طبقتي المستثمِروالمستثمَر»[٣٨].

ولعل بعض ممن حمل هذا التصورعن رؤى الطالقاني حاول بواسطته تبرير أسلوبه ونهجه السياسي، الأمرالذي ظهرفيما بعد لدى أعضاء منظمة ما يسمى مجاهدي خلق واليساريين المعاصرين له. لكن الحقيقة تقول شيئًا آخرهو أن الطالقاني أراد من خلال دراسة تطبيقية للمذاهب الموجودة أن يلفت نظرالناس إلى أن الإسلام والحكومة الإسلامية تتفوق على هذه المذاهب بمزايا جمة، ولها رأيها بشأن التساؤلات الجديدة للبشرية وبما يتماشى مع تطورات العالم المعاصر. هذا من جهة، ومن جهة أخرى اعتبرالطالقاني أن كل فكرة أو منهج أو هدف اجتماعي يضع حدًا لغطرسة واستبداد الحكام يعني الإقتراب خطوة باتجاه هدف الأنبياء والإسلام، وأن مفاهيم الدستورية والديمقراطية والاشتراكية تعد بمعناها الحقيقي والواقعي خطوات متتابعة لنيل الهدف النهائي أي الحكومة القائمة على الإسلام»[٣٩].

إن هذه البحوث التي أثارها السيد الطالقاني طرحت في وقت لم تكن نظرية ولاية الفقيه قد طرحت بعد من قبل الإمام الخميني "قدس سره". لذا بذل

الطالقاني في ظل الأجواء السائدة في داخل إيران والنظام الدولي، وعبرتفسيرآراء وأفكارآية الله النائيني، جهده في الدفاع عن مكاسب ثورة الدستور(المشروطة) باعتبارها أقرب منهج للحكومة الإسلامية والتي تم اختبارها إلى حد ما على الصعيد العملي.

يعد آية الله النائيني أبرزقائد فكري بين علماء ثورة الدستور، إذ هبّ للدفاع عن التشيع والوقوف بوجه الحداثة وأفكارالديمقراطية التي بدأت تغزو الوسط الإيراني، وقد طرح دفاعياته النظرية المستدلة عن تواؤم الدستورية مع الدين في كتاب *تنبيه الأمّة وتنزيه الملّة*. وفي الحقيقة أن المرحلة التي أعقبت الشيخ النائيني خبا فيها بريق الفكرالسياسي لعلماء الشيعة، ولو حصل أن صدرت وجهات نظر لأشخاص كالسيد حسن مدرس وآية الله الكاشاني فهؤلاء غالبًا ما كانوا يصنفون ضمن السياسيين لا في صف المنظرين والمفكرين الدينيين»[٤٠]. على صعيد آخر، قام البعض على عهد حكومة رضا شاه التي توفرت فيها مقومات اللادينية وحداثوية المجتمع مع أفكارالحضارة القديمة و إلى جانب القيام بإصلاحات حداثوية شبه مطلقة، بإعادة النظرفي التعاليم الدينية ومؤسساتها والقائمين عليها وصياغتها بما يواكب العصر، ومن أبرزهؤلاء كسروي وحكمي زادة وشريعت سنكلجي. لكن ثلة من العلماء أبرزهم الإمام الخميني "قدس سره" انبرت للرد على آراء وانتقادات هؤلاء الأشخاص. فقد عمد الإمام "قدس سره" في كتاب *كشف الأسرار* إلى الرد على شبهات و إثارات حكمي زادة وكسروي.

«النقطة الجديرة بالتمحيص هي أن كتاب الإمام قام بتبيين الخطوات اللازمة لتأسيس مجتمع ديني بكل أبعاده لا أن يكتفي بعرض لنهج جديد على صعيد الحكومة الدينية، حيث تم فيما بعد طرح نظرية ولاية الفقيه. بالإضافة إلى ذلك فإن تيارفدائيي الإسلام الذي ظهربعد أيلول ١٩٤١ في المشهد السياسي الإيراني

كان يتسم بعمق ورسوخ في المبادئ الفكرية والمعرفية لكنه لم يكن بمستوى تقديم نموذج شرعي بديل»[٤١]. في مثل هذه الأجواء والظروف قام الطالقاني وبمبادرة فورية بشرح وتفسيرونشرآراء آية الله النائيني مجددًا.

كان هدفه الرئيس يتمثل في إثبات فرضية أن التشيع يرفض الاستبداد من الأساس وينسجم مع الديمقراطية. كان للسيد الطالقاني، شأنه شأن بازركان، رسالتان مترابطتان: البرهنة على أن للإسلام رأيه وجوابه على الأسئلة الجديدة ولذا فهو يتماشى مع العالم المعاصر. ومن ثم ردم الهوة العميقة التي كانت تفصل بين المؤمنين الصالحين والإصلاحيين غيرالمتدينين، بين رجال السوق التقليديين وذوي الاختصاص، بين علماء الدين المحافظين ضد النظام والمثقفين الأصوليين، وبين الشخصيات الدينية في قم وبين المثقفين الوطنيين في الجبهة الوطنية»[٤٢].

ورغم علمه بأن ثورة الدستورهي من إنجازات الغرب، وهو ما تسبب في خلق جملة من التناحرات في الداخل بين أنصارها ومعارضيها، إلا أن الطالقاني و إلى جانب إعرابه عن أسفه لعدم تحقق أهداف المشروطة وما شهدته الساحة بعد انقلاب (٢٨ مرداد) كان يرى:

«ما حصل صارفي عداد الماضي. بعد كل تلك التضحيات والدماء أصبح لدينا اليوم ثورة دستورناقصة. ألا يمكن إكمالها؟ هل لدينا طريق أخرى؟ أليست حكومة ثورة الدستورهي لجام للاستبداد المتفشي؟ أليست الإطاحة بسلطة الاستبداد هو هدف قادة التيارات الدينية والإصلاحية؟ أليس بالوسع التقرب بالقدر الممكن بالدستور إلى الهدف السامي للحكومة الإلهية، والذي تمت الإشارة إليه»[٤٣].

ولعل من العلامات المضيئة في رؤية السيد الطالقاني لإدارة شؤون المجتمع في إطارالحكومة الإسلامية هو الاهتمام بمبدأي آراء الشعب والشورى. فقد كتب حول قوانين ثورة الدستوروأهمية ممارسة الشعب دوره الرقابي على الحكومة،

يقول: إن الدستور، سواء على صعيد انبثاق الحكومة من آراء المسلمين أم على صعيد تحديث الحكم وتقسيم السلطات في الظروف السائدة من غيبة للإمام المعصوم وانعدام وجود النائب الخاص وفقدان للنواب العامين ممن يكون مبسوط اليد، هو نفسه الحكومة الإسلامية إن تم تنفيذه بصورة صحيحة. ذلك أن الحاكم والسلطان واحد من بني البشر لديه ما لدى كافة الناس من الغرائز والشهوات كما أنه لا يمتلك حصانة العصمة. والحل هو أن سلطة عامة الناس والمنتخبون من قبل الشعب يحددون إطار عمل الحكام ويمنعونهم من الانزلاق والانحراف"[٤٤].

من هنا صار الطالقاني يؤكد على الشورى ودورها في إدارة شؤون المجتمع باعتبارها تمثل السبيل لتدخل أبناء الشعب في تحديد مصيرهم السياسي وممارسة الدور الرقابي على الحكومة. ولتبيين هذا المفهوم يشير الطالقاني إلى سنة الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) والإمام علي (عليه السلام) وكذلك ما ورد في سورة الشورى المباركة ويخاطب الناس من أن كل واحد منكم مسؤول وعليك أن تنبّهوا المسؤولين. وحول أهمية دور الشعب في إطار الشورى، يقول: «لقد قلت مرارًا وفي كل مكان، من أجل أن يدرك الشعب الذي تم تهميشه، الشعب الذي لا يرى ضرورة بأن يحدد مسيره في حياته العامة.. من أجل أن يفهم أن مصيره بيده لابد أن نقول له بأن يشكل مجالس الشورى»[٤٥].

ظل السيد الطالقاني طوال سنوات محاربة الاستبداد يحمل إيمانًا راسخًا بمبدأ الشورى ومساهمة الناس في إدارة شؤون المجتمع، إذ نأى بنفسه بعد انتصار الثورة الإسلامية عن كل العناوين البراقة، الغربية منها والشرقية، من قبيل الديمقراطية والاشتراكية والجماهيرية والوطنية ودعا فقط إلى نظام الشورى واضعًا نصب عينيه هدفين أساسين هما: سيادة الشعب وتبوؤه لمكانته وتحمّله للمسؤولية، وكذلك تغيير البنية السياسية والاقتصادية والإدارية للنظام الدكتاتوري

الشاهنشاهي إلى نظام شورى جمهوري إسلامي»[٤٦].

على أن مطالب السيد الطالقاني الذي كان يحظى بنحو ما بقبول الإمام الخميني "قدس سره" وباقي المسؤولين، تم الأخذ بها في كتابة الدستور وأُفرد لها فصل خاص. ومع ذلك رأى البعض أن نظام الشورى لم يطبق في المستويات الدنيا و إنما في المستويات العليا فقط (كمجلس صيانة الدستور، مجمع تشخيص مصلحة النظام، المجلس الأعلى للشباب، مجلس الثورة الثقافية). مع وجود فارق بين الرؤيتين؛ فالمؤسسين لهذه المجالس يرون أن الجمهورية الإسلامية هي حكومة فاضلة، ومن خبراء الشعب. فيما يذهب آية الله الطالقاني إلى أن الجمهورية الإسلامية نظام شورى يضم صلحاء الشعب»[٤٧]. وبعيدًا عن نقاط الضعف والقوة في تفعيل فكرة مجالس الشورى، يبدو أن فكرة السيد الطالقاني قد تحققت إلى حد كبير بعد أن تم تطبيق قانون المجالس المحلية للمدن والقرى و إجراء انتخابات المجالس.

غير أن هناك بعدًا آخر في موضوع أهمية الشورى و إيمان الطالقاني الراسخ بها، وهو أن تأكيده على مراعاة هذا المبدأ لم ينحصر على القضايا السياسية والاجتماعية و إنما تعدّاه إلى القضايا الدينية أيضًا. «فبعد وفاة آية الله البروجردي اعتبر الطالقاني أن تحديد المرجعية بشخص واحد واعتماد الفتوى الشخصية لا يلبي الحاجة الزمانية وعلوم الوقت الراهن واقترح تشكيل شورى الفتوى، ما يعد سابقة في تاريخ الفقه الشيعي»[٤٨]. فقد اقترح في كتاب يبحث موضوع المرجعية وعلماء الدين تم إعداده من قبل فريق من العلماء: وفقًا لما تقدم، يجري عقد اجتماع لشورى الفتوى برئاسة واحد أو عدد من العلماء الكبار والمقبولين لدى العامة في واحد من المراكز العلمية مرة في كل شهر أو عدة أشهر، ليتم خلاله مناقشة القضايا الخلافية ومواضيع الساعة أو استعراض الأحداث الواقعة. كما سعى الطالقاني إلى نشر وتطبيق الحرية على المستويات المختلفة في المجتمع «لم

يكتف بوجود الكيانات الديمقراطية والمعروفة كالبرلمان بل توصل من خلال الدمج بين نظرية الشورى والبرلمان وبالاستفادة من تجاربه التاريخية ودراساته، إلى فكرة الشورى البرلمانية»[٤٩]، والتي يمكن تفعيلها على مستويين وبصيغتي البرلمان والمجالس المحلية.

و إلى جانب توكيده على احترام دورالشعب ونظرية الشورى ومواكبة الإمام الخميني "قدس سره"، مارس في مجلس الخبراء دورًا محوريًا في كتابة الدستور. فبعد انتصارالثورة الإسلامية وضعت نظرية ولاية الفقيه على المحك لأول مرة وبدأت مناقشات واسعة حول دوروامكانة وعمل وخيارات وشؤون ولي الفقية. «وخلال هذه البحوث والمناقشات ذهب فقهاء كآية الله المنتظري وآية الله مكارم الشيرازي واستنادًا لسنن صدرالإسلام إلى بسط يد القائد في الدستوروتكليفه بأكبرقدرمن المسؤولية. بينما مال آخرون كآية الله الطالقاني في رأيهم إلى دائرة أضيق من المسؤولية وخيارات أقل للقيادة ولولاية الفقيه بما يترك فسحة أكبر لمشاركة الناس وتجسيد وحدتهم و إجماعهم»[٥٠].

ورغم ما كانت تتمتع به رؤية ووجهة نظرالسيد الطالقاني من شفافية بشأن مبدأ ولاية الفقيه، حاولت بعض المجموعات والصحف في ظل الأجواء السائدة خلال الأشهرالأولى بعد انتصارالثورة الإسلامية الإيحاء بأن الطالقاني يحمل رؤية مخالفة بهذا الشأن.

«حينما أثيرموضوع ولاية الفقيه في مجلس الخبراء وصارمحلًا للتداول في الأوساط والمحافل المختلفة، سأله أحد أولاده وكان يحمل رأيًا مخالفًا لوالده، عن وجهة نظره. وفي معرض جوابه أوضح الوالد أنه إذا كان القصد هوالمرجعية والزعامة الدينية فهو مفهوم متفق عليه ومقبول لدى كافة المذاهب والأديان، لكنني أخشى من أن يبتعد علماؤنا الأفاضل عن أداء رسالتهم الإلهية والمعنوية ودورهم الرقابي الإرشادي إذا ما تم تصنيفهم ضمن الطبقة المتميزة والحاكمة،

الأمر الذي سيشكل خطرًا على علماء الدين الشيعة ومستقبل هذا النظام الإسلامي»[٥١].

على أن التزامه الصمت لمدة طويلة ومستمرة وعدم مشاركته في مناقشات وحوارات مجلس خبراء الدستور أو تغيبه وتأخره اليومي فتح بابًا للتأولات. وبغض النظر عن أسباب تلك التأولات وهي كثيرة، فإن المعلومات الناقصة والعارية من المصداقية كرست مفهوم الشبهات. ولعل من أبرز الأدلة على هذا الإدعاء، تقرير مراسل صحيفة إطلاعات في ١٠ أيلول عام ١٩٧٩ حينما كتب المراسل يقول: «تم في اجتماع ذلك اليوم التصويت على المادتين الرابعة والخامسة. لم ألتفت لما حصل بشأن التصويت على المادة الرابعة لكنه فيما يتعلق بالمادة الخامسة فقد شاهدت أن آية الله الطالقاني بحث في درج طاولته لفترة ثم أخرج منه بطاقة المخالف القاتمة ووضعها في إناء التصويت»[٥٢]. غير أن ما جاء في هذا التقرير لا يبدو صحيحًا والسبب هو أن المادة الرابعة قد وضعت للتصويت عليها في ٩ أيلول المصادف لآخر يوم من حياة السيد الطالقاني حيث لم يشارك هو في التصويت، أما «المادة الخامسة فتم التصويت عليها في الاجتماع الخامس عشر لمجلس خبراء الدستور بتاريخ ١٢ أيلول من عام ١٩٧٩ المصادف لليوم الثاني من رحيل الطالقاني»[٥٣]. لذا فإن «تقرير مراسل صحيفة إطلاعات لا يستند الى الواقع. وقيل أن آية الله الطالقاني أفصح عن وجهات نظره بشأن ولاية الفقيه في رسالة بعث بها للجنة ذات العلاقة لكنه لم يتم للأسف عرضها في مجلس الخبراء»[٥٤].

ورغم هذه الإثارات إلا أنه كانت هناك نقطة واضحة جدًا وهي العلاقة الحميمة بين آية الله الطالقاني والإمام الخميني "قدس سرهما". كما صرح بذلك الطالقاني نفسه في غير مرة. فقد قال ذات مرة بهذا الشأن: «منذ سنوات الدراسة الحوزوية وأنا أعرفه عن قرب، فماضيه الطيب وأفكاره ونظرياته جلية واضحة وغير خافية على أحد. إن آية الله العظمى الخميني شخصية أحاطته هالة من

التقديس منذ البداية، كان ولايزال ممتازًا من كل النواحي»[٥٥].

ثم إن واحدًا من المحاورالمهمة في رؤية السيد الطالقاني للحكومة الإسلامية يتمثل في مشاطرته الرأي للإمام الخميني بشأن نمط الحكومة بعد الثورة الإسلامية، أي «الجمهورية الإسلامية». كان الطالقاني يؤمن بأن مطلب غالبية الناس هو الجمهورية الإسلامية، ولذا أكد بشكل خاص على البعد الإسلامي فيها وقال: «نحن نريد جمهورية إسلامية. والدستور على أساس الجمهورية والإسلام. إنه مطلب غالبية الشعب الذين صنعوا الثورة وقادوا الثورة. إننا لا نتجاهل حقوق الآخرين. يمكن أن نجلس للتداول بشأن الجمهورية ومدى تأمينها لحقوق الناس لكن إسلاميتها لا يمكن تغييرها»[٥٦].

ويواصل السيد الطالقاني حديثه عن الحكومة الإسلامية ويستشهد بنماذج من حكومة الإمام علي (عليه السلام)، لاسيما حينما أقسم بالله الذي بعث محمدًا (صلى الله عليه وآله وسلم) بالحق من أنه سيغربل أصحابه حتى يعرف من هو الأحق بتولي المسؤولية، ويقول: «الجمهورية الإسلامية التي نتحدث عنها كهذا النظام. وهذه ليست حكومة المعممين مطلقًا، إذ يمكن لعالم الدين أن يشارك في الحكومة شأنه شأن سائرالناس، فإن أخطأ فينبغي ودون أي تعصب محاسبته بصفته ناسخًا لصورة الإسلام»[٥٧].

وفي معرض تبيينه للأبعاد المختلفة للجمهورية الإسلامية يقول: إذا زعمت شرذمة بأنهم لم يفهموا معنى الجمهورية الإسلامية فهؤلاء لا يريدون ولا يمكنهم فهم الإسلام، ذلك أن شعبنا يفهم الإسلام بشكل أدق وأوسع وأعمق مقارنة بباقي الإيديولوجيات والمذاهب الفكرية.

النتيجة

مع تصفح سجل آراء ووجهات نظرالسيد الطالقاني من جهة، وسجله الجهادي

من جهة أخرى وكذلك نمطية تعامله السياسي والاجتماعي مع المجموعات المناضلة وشرائح المجتمع المختلفة. يتضح أن السيد الطالقاني شخصية التقت عنده اتجاهات مختلفة، وشخصية نادرة في تاريخ التحولات السياسية والاجتماعية الإيرانية خلال السنوات الممتدة بين أيلول عام ١٩٤١ وحتى وفاته في أيلول ١٩٧٩. لا يمكن إنكار دورالسيد الطالقاني في انتصارالثورة الإسلامية. قدرته على تعبئة القوى المناهضة للاستبداد وتوحيد صفهم وآراؤه العملية في مجال الحكومة الإسلامية والجمهورية الإسلامية لاسيما تأكيده على الشورى ودورالناس، كل ذلك يدل على مكانته المرموقة في مسيرة انتصارالثورة الإسلامية ونظام الجمهورية الإسلامية بصفته منظّرًا وثوريًا محترفًا تجسد مثل هذه المنزلة. هذا المعنى يتضح جليًا في قول مفجرالثورة الإسلامية الإمام الخميني "قدس سره" في بيان أصدره بمناسبة التحاقه بالرفيق الأعلى: كان للإسلام بمنزلة أبي ذر(الغفاري). منطقه البليغ كسيف مالك الأشترقاطعًا وقاصمًا، وفاته عاجلة وعمره مبارك.

الهوامش:

١ - علي رضا ملائي؛ *الحياة السياسية لآية الله الطالقاني* (طهران، ني للنشر٢٠٠٩) ص ٦٠

٢- محمد إسفنديارى؛ *بريد الشمس* (قم، صحيفة "خرد" ٢٠٠٤) ص ١٤

٣- علي رضا ملائي تواني؛ المصدرنفسه، نفسه ص ٤٣

٤- السيد محد الطالقاني؛ *دروس قرآنية* (طهران، شركة النشرالمساهمة بالتعاون مع مؤسسة آية الله الطالقاني الثقافية، ٢٠٠٨) ص ٥٥

٥- علي رضا ملائي تواني؛ المصدرنفسه، ص ٦٣

٦- محمد إسفنديارى؛ المصدرنفسه، ص ٥٤

٧- علي محمدي، *آية الله الطالقاني أبوذرالزمان* (طهران، منظمة الاعلام الإسلامي، ١٩٩٤) ص٢٨

٨- المصدر نفسه

٩- السيد محمود الطالقاني، *أشعة من القرآن* (طهران، شركة النشر المساهمة، ١٩٦٦) الطبعة الثانية، ص ١٣

١٠- محمد إسفنديارى؛ نفس المصدر نفسه، ص ٥٤

١١- علي رضا ملائي تواني؛ نفس المصدر نفسه، ص ٢٥٢

١٢- المصدر نفسه

١٣- السيد محمد حسين ميرأبو القاسمي، *الطالقاني صرخة في الصمت*، المجلد ١، (طهران، شركة النشر المساهمة، ٢٠٠٨) ص ٣٦١

١٤- المصدر نفسه، ص ٣٧٤

١٥- المصدر نفسه، ٣٧٥

١٦- محمد إسفنديارى؛ المصدر نفسه، ص ٨٤ و٨٥

١٧- المصدر نفسه، ص ٦٠

١٨- السيد محمد حسين ميرأبو القاسمي؛ المصدر نفسه، ص ٣٧٧

١٩- محمد إسفنديارى؛ المصدر نفسه، ص ٦٣

٢٠- المصدر نفسه ، ٨٧

٢١- السيد محمد حسين ميرأبو القاسمي؛ المصدر نفسه، ص ٣٧٨

٢٢- محمد إسفنديارى؛ المصدر نفسه، ص ٨٧ و٨٨

٢٣- علي رضا ملائي تواني؛ المصدر نفسه، ص ٩٩ و١٠٠

٢٤- المصدر نفسه، ص ١٠١

٢٥- يرواند آبراهاميان؛ *إيران بين ثورتين*. ترجمه للفارسية: أحمد كل محمدي، محمد إبراهيم فتاحي (طهران، ني للنشر، ٢٠٠٩) ص ٥٦٤

٢٦- علي رضا ملائي تواني؛ المصدر نفسه، ص ١٠٥

٢٧- المصدر نفسه، ص ١٣٦

٢٨- المصدر نفسه.

٢٩- عباس داوودیان فر؛ أبو ذر الثورة (قم، مركز الأبحاث الإسلامية للإذاعة والتلفزيون، ٢٠٠٣) ص٣٩

٣٠- السيد محمد حسين ميرأبو القاسمي؛ المصدر نفسه، ص ٤٢٧

٣١- علي رضا ملائي تواني؛ المصدر نفسه، ص ١٤٢

٣٢- المصدر نفسه، ص ١٤٣

٣٣- المصدر نفسه، ص ١٤٢

٣٤- المصدر نفسه، ص ١٤٢

٣٥- السيد محمد حسين ميرأبو القاسمي؛ المصدر نفسه، ص ١٧٩

٣٦- السيد محمود الطالقاني؛ *الإسلام والملكية*، ص ٢٢٥

٣٧- المصدر نفسه، ص ٢٢٩

٣٨- يرواند آبراهاميان؛ المصدر نفسه، ص ٥٦٥

٣٩- علي رضا ملائي تواني؛ المصدر نفسه، ص ١٠٦

٤٠- المصدر نفسه، ص ١٠٩

٤١- المصدر نفسه.

٤٢- يرواند آبراهاميان؛ المصدر نفسه.

٤٣- علي رضا ملائي تواني؛ المصدر نفسه ، ص ١١٣

٤٤- المصدر نفسه، ص ١١٠ و١١١

٤٥- عباس داوودیان فر، نفس المصدر نفسه، ص ٦٦

٤٦- السيد محمد حسين ميرأبو القاسمي؛ المصدر نفسه، المجلد الثاني، ص ١٨٨ و١٨٩

٤٧- المصدر نفسه.

٤٨- نفسه، ص ١٨٧

٤٩- علي رضا ملائي تواني؛ المصدر نفسه، ص ٤٢٥

٥٠- المصدر نفسه، ص ٣٩٦

٥١- السيد محمد حسين ميرأبو القاسمي؛ المصدر نفسه، المجلد الثاني، ص ٢٢٠

٥٢- علي رضا ملائي تواني؛ المصدر نفسه، ص ٣٣٨

٥٣- المصدر نفسه ص ٢٣٩

٥٤- السيد محمد حسين ميرأبو القاسمي؛ المصدر نفسه، المجلد الثاني، ص ٢١٩

٥٥- علي رضا ملائي تواني؛ المصدر نفسه، ص ٤٤٤ و٤٤٥

٥٦- عباس داوودیان فر؛ المصدر نفسه، ص ٧٢

٥٧- علي رضا ملائي تواني؛ المصدر نفسه، ص ٣٨٨